

علاقة البلاغة بالعلوم الأخرى

د. أحمد حسين جوده الشريفي

جامعة بابل – كلية التربية الأساسية

The relationship between rhetoric and other sciences

Dr. Ahmed Hussein Joda Al-Sharifi

University of Babylon – College of Basic Education

bas150.ahmed.hussien@uobabylon.edu.iq

الملخص:

البلاغة العربية من أجل العلوم الإنسانية واللغوية والأدبية وأفضلها وأحقها بالتعلم، لأنها تعني مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع الفصاحة والبيان، أي تميز الكلام الحسن من الرديء، ومن أهدافها المهمة فهم كتاب الله عز وجل ومعرفة صور إعجازه في ضوء الدلائل والقرائن البلاغية، ويعد القرآن الكريم مصدراً أساسياً لعلوم البلاغة؛ هدفت الدراسة إلى توضيح البلاغة وفنونها وتطورها وعلاقاتها بالعلوم الأخرى،

البلاغة علم متشعب العلاقات مع العلوم الأخرى، فكثيراً ما نقرأ مقالات وكتباً عن العلاقة الوطيدة الراسخة بين البلاغة والقرآن الكريم، أو بين البلاغة والتفسير القرآني، أو بين البلاغة والحديث الشريف، أو بين البلاغة وعلمي النحو والصرف، وربما بنسب أقل من ذلك بكثير عن علاقة البلاغة بالعلوم الأخرى، مثل علم الكلام، أو علم الأصول، أو علم الفقه، مع أنه مما لا شك فيه أن البلاغة تطبع آثارها العميقة في ذلك كله، فتفسير النص الديني، وتحليله ودلالاته يتقاطع – قبل ذلك كله – تقاطعاً ضرورياً لزومياً مع مرحلة فهم النص، وهل استعمل النص تعبيراته على نحو الحقيقة أم المجاز؟، إلى سائر الدلالات الكامنة فيه والمخبوءة في ألفاظه وأساليبه، والتي تكون علوم اللغة – وعلى رأسها البلاغة – المحدد الأساس لمعناه ودلالته.

ومع هذه العلاقات المتواشجة، وأهميتها في تحديد المعنى والدلالة، والتي وجدنا البحث فيس بعضها بوفرة واتساع، وبعضها بندرة وشحوب، تبرز علاقة أخرى لعلنا لم نر بحثاً فيها، وهي: علاقة البلاغة بالتكنولوجيا وعلاقتها بعلم النفس، ويمكننا أن نختصر العلاقة بين البلاغة بالتكنولوجيا بالقول: إنها علاقة تكاملية تبادلية، فكل منهما يكمل الآخر، ويستفيد منه، ويفيده، وهذا ما سيهتم البحث بتوضيحه من خلال الوقوف على بعض نماذج من القرآن الكريم والسنة المطهرة.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الفنون، التكنولوجيا، علم النفس.

Abstract:

Arabic rhetoric is the most important and worthy of study among the humanities, linguistics and literature, because it means matching speech to the circumstances with eloquence and clarity, i.e. distinguishing good speech from bad. One of its important objectives is to understand the Book of Allah, the Almighty, and to know the miracles it contains in light of rhetorical evidence and clues. The Holy Qur'an is a fundamental source for the sciences of rhetoric. The study aimed to clarify rhetoric and its arts, its development, and its relationship with other sciences .

Rhetoric is a science with many connections to other sciences. We often read articles and books about the strong relationship between rhetoric and the Holy Quran, or between rhetoric and Quranic interpretation, or between rhetoric and the Hadith, or between rhetoric and the sciences of grammar and morphology. Perhaps to a much lesser extent, we read about the relationship between rhetoric and other sciences, such as theology, jurisprudence, or fiqh, although there is no doubt that rhetoric has a profound impact on all of these. The interpretation, analysis, and meaning of religious texts intersect – before all that – necessarily intersect with the stage of understanding the text, and whether the text uses its expressions literally or figuratively, to all the meanings inherent in it and hidden in its words and styles, which are the sciences of language – foremost among them rhetoric – that determine its meaning and significance.

With these intertwined relationships and their importance in determining meaning and significance, some of which we found in abundance and breadth, and some of which were scarce and sparse, another relationship emerges that we may not have seen researched before, namely: the relationship between rhetoric and technology and its relationship with psychology. We can summarise the relationship between rhetoric and technology by saying: It is a complementary and reciprocal relationship, in which each complements the other, benefits from it, and is benefited by it. This is what the research will seek to clarify by examining some examples from the Holy Qur'an and the Sunnah .

Keywords: Rhetoric, arts, technology, psychology.

علاقة البلاغة بالعلوم الأخرى:

علاقة البلاغة بالأدب والنقد واللغة:

ظهرت دراسات ومصنفات كثيرة تناولت موضوع البلاغة في معرض الحديث عن الأدب واللغة، من أهمها كتاب سيبويه (ت ١٨٠هـ) ومعاني القرآن للفراء (ت ٢٠٧هـ) ومجاز القرآن لأبي

عبدة (ت ٢١٠هـ) وفحولة الشعراء للأصمعي (ت ٢١٦هـ) والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ (ت ٢٥٥هـ) والشعر والشعراء وأدب الكاتب لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) والكامل ورسالة البلاغة للمبرد، ولم تكن كتب هذه المرحلة مخصصة للبحث البلاغي، ولا متعمقة في تأصيله، وإنما هي مرحلة تمهيد للتأليف الذي بدأ في أواخر القرن الثالث حين وضع ابن المعتز العباسي (ت ٢٩٦هـ) كتابه "البدیع".

مما لا شك فيه للبلاغة أهمية لا تحصى للأدب فمن خلالها تُتمى القدرة على فهم النصوص الأدبية شعراً كان أو نثراً والوقوف على أسرارها والتعرف على خصائصها وأسرار جمالها مما تمكن القارئ من الأفكار الذي يقرأها فهي فن القول والكلام وترجمة الأفكار والمشاعر وغيره، ولها مكانتها المتميزة بين فنون اللغة العربية وفروعها التي تكون وحدة مترابطة، فمن خلال البلاغة تنمى القدرة على التدنوق للنصوص الأدبية، واكتساب معايير النقد والحكم على النتاج الأدبي، وما يحويه من جمال فني، والمهارات الفنية التي امتاز بها الأديب، وتعرفك على خصائص الأسلوب العربي الجميل، مما يفيد في ترقية النتاج اللغوي تحدثاً وكتابة^(١). وكذلك فان علاقة البلاغة لا تنفك عن فنون اللغة وفروعها؛ فهي مرتبطة بفنون الأدب والنقد والتدقيق الأدبي ارتباطاً وثيقاً؛ وتعتبر البلاغة قوام الأدب، وأهم عناصر تكوينه، ذلك لأنها لا تخرج عن دائرة المعنى، واللفظ، والأسلوب.

فالأدب لا يكون أدباً إلا إذا كانت البلاغة سمتة، ومعاييرها مطبقة فيه، ولم يقد علم البلاغة إلا بالكشف عن مكنون الأدب شعره ونثره، والوقوف على سر جمال الفكرة والأسلوب فيها، ومبعث تحريك العواطف والمشاعر، ومما يعتد بها معتمداً عليها الناقد الفني في نقد الأدب. وبالإضافة إلى ذلك فإن الغاية من تدريس الأدب والبلاغة معاً، هي لخلق ذوق أدبي وتكوين وسيلة تحقيقه بالاعتماد على النصوص الأدبية الراقية، فالعلاقة بينهما علاقة تأثير وتأثر، لذلك فإن الربط بينهما لا غنى عنه فأحدهما يكمل ويتم الآخر فربطهما واجب.

وكذلك من ناحية أخرى فالبلاغة مركز النقد الأدبي ومرجعه؛ فالنقد هو دراسة النص الأدبي دراسة تحليلية في ضوء رؤية بلاغية نقدية؛ وذلك لتحديد وظائفه، والقيم الفنية للعمل الأدبي، ومستوى جودته، فالنقد الأدبي يحلل الآثار الأدبية للنصوص معنى ومبنى، والعناصر المكونة لها، للانتهاء إلى إصدار حكم يتعلق بمبلغها من الإجابة؛ وذلك في ضوء الحقائق البلاغية قديمها وحديثها، وفي ضوء الوظيفة العملية للغة، والوظيفة الانفعالية لها.

أما التذوق الأدبي فهو نشاط إيجابي يقوم به المتلقي استجابة للتأثر بنواحي الجمال الفني في نص معين بعد التركيز والانتباه إليه وتفاعله معه عقلياً ووجدانياً على نحو يستطيع به تقدير النص والحكم، ومن الطبيعي إن قدرة المتلقي على التذوق للنص الأدبي وفهمه وتقديره، ورؤية جماليته، وتمييزه بدقة بين ما فيه من المزايا الفنية والعيوب وإصدار الحكم عليه تعتمد أساساً على مقومات البلاغة والنقد الأدبي؛ مما يجعل المتلقي يستمتع به ويقبله، أو ينفر منه ويرفضه^(٢).

ومن كل ما ذكرناه، يتضح أن علاقة وثيقة وارتباط وتداخل مابين البلاغة والنقد وفنون الأدب.

العلاقة بين البلاغة والنحو:

أما البلاغة والنحو فالعلاقة بينهما قائمة وطيدة فكلاهما متمم للآخر، ومن متطلبات فهم النص الأدبي وتذوقه، وقد تم تأكيد ذلك عبد القاهر الجرجاني من خلال "نظرية النظم عنده" إذ يرى أنه لا يمكن أن يفصل النحو عن البلاغة فهما يشكلان وحدة يتكاملان ويلتقيان بها في نظم الكلام وضم بعضه لبعض، وكذلك لا يمكن دراسة بلاغة الكلام بغير دراسة النحو؛ لأنه الأساس في العلاقات التي تحكم النظم، ففساد التركيب ناشئ عن عدم توخي معاني النحو وأحكامه بين الكلمات والنحو عنده هو قلب النظم فهو بالنسبة له القانون الذي ليس له وجود مادي ولكنه موجود وجود قوانين الحركة.

وقد أكد ذلك الجرجاني من خلال نظرية النظم بعدم فصل البلاغة عن النحو فهما متلازمان كما تتلازم الفائدة والإسناد في الكلام وتبرز علاقة النحو بالبلاغة جلية في فن المعاني. ومن كل ما سبق تتضح أهمية البلاغة ومهاراتها ومنزلتها بين فنون اللغة العربية بما تؤديه من وظائف أساسية، أهمها تمكين دارسي اللغة من القدرة على التعبير السليم والمؤثر وبالتالي تنمية الإبداع اللغوي بالإضافة إلى كونها إحدى الوسائل المهمة في تحقيق اللغة لأهدافها باعتبارها وسيلة لا بد منها لتذوق الجمال الفني في النتاج الأدبي.

ويدعو ابن كمال في دراساته هذه إلى تجديد الدرس اللغوي وإحياء آراء عبد القاهر الجرجاني، والتي ليس بينها وبين المعاصرة فاصل كبير، وهي تأتي في زمن هيمن فيه (مفتاح العلوم) لأبي يعقوب السكاكي (ت ٦٢٦هـ) ونظمه وشروحه وتلخيصاته.. فكانت محاولة للخروج من التأثر بالمنطق والفلسفة والعلوم العقلية إلى فهم روح البلاغة، وإثراء الإحساس في تذوق النص الأدبي، ووضع البلاغة والنحو وضعاً سليماً في خدمة اللسان العربي، وإنما تقوم اللغة بمجموعة العلاقات بين الدلالات ورموز المعاني المتمثلة في الألفاظ لأداء ما في النفس^(٣).

العلاقة بين البلاغة والعلم والفن:

إن الفرق بين العلم والفن، يمكن أن نبينه من خلال دراسة الطالب لقواعد البلاغة ومسانئها دراسة نظرية منظمة، فيقال أن الطالب يدرس علم البلاغة، كما إنه في الوقت ذاته يدرس قوانين التشبيه والمجاز، ومواضع الفصل والوصل، وأصول الخطابة والرواية، فإن طبق هذه القواعد تطبيقاً عملياً بإنشاء الكلام البليغ، يقال عنه أنه يعالج فن البلاغة، عندما يكتب قصة أو يرتجل الخطابة، فيدع الوصف فإذا العلم هو معارف إنسانية في أسلوب منسق، والفن هو هذه المعارف في شكل تطبيقي عملي، والفن نوعان، أحدهما يكون نافع كالصناعات التي يكون عمل الجسم فيها أكثر وأبين من عمل الذوق، والثاني هو الفن الجميل الذي يكون فيه الأثر للذوق والمظهر أشد وأبين من الأثر للجسم مثل الأدب والموسيقى والتصوير والرسم، فتعتبر هذه جميعها لغات حسية جميلة تعبر عن عاطفة الإنسان وشخصيته الفنية تعبيراً جميلاً بوسائلها المختلفة كاختيار العبارات الأدبية وتذوقها، وكألحان الموسيقى المرفهة بالإحساس، أو صورة مرسومة بألوان منسقة، والتفنن في أداة لعمل تماثيل بصورة معبرة.

ولم أقرأ القول بأن اشتغال البلاغة بالإعجاز يفسدها لأحد قبل المرحوم أمين الخولي، وقرأت هذه بعده لكثير من الكتاب الذين لم يكلفوا أنفسهم مراجعة ما يقرؤون، وأطع أن الشيخ أمين لم يقرأ من كتب الإعجاز إلا ما كتبه القاضي عبد الجبار في الجزء السادس عشر من كتابه الكبير المغني في أبواب التوحيد والعدل، وقد حققه الشيخ أمين - رحمه الله - وأثابه، ولو قرأ للباقلاني أو للخطابي أو للرماني لما قال هذا، وكتاب الخطابي مع صغر حجمه فيه من العلم والبلاغة العالية والفكر النقدي المضر في طي سطوره الكثير والنافع، والباقلاني يقول إنه لا يدرك الإعجاز^(٤).

العلاقة بين البلاغة والتكنولوجيا:

شاعت أربعة معان يتم تداولها في السياقات النقدية الغربية، وهي: البلاغة الرقمية digital rhetoric، أو البلاغة الإلكترونية erhetoric، البلاغة المرئية visual rhetoric، بلاغة الانترنت web rhetoric.

حيث الرقمية والإلكترونية مصطلحان مترادفان وبلغتهما تعني: فن الأقناع في وسائل الإعلام الإلكترونية وإقناع وإلهام الجمهور للقيام بأفعال معينة عبر وسائل الإعلام الرقمي. وهو شكل متقدم من أشكال الاتصالات التي تم إنشاؤها وتوزيعها من خلال منصات الوسائط المتعددة.

تجمع البلاغة ما بين أساليب متعددة مثل الإقناع والكتابة والخطاب المؤثرين بهدف تقديم المعلومات بطرق مبتكرة^(٥)، وقد تغير معنى البلاغة بمرور الزمن، وتطور مع التغيرات التي

طرأت على الثقافة. وتزايد استخدام وسائل الإعلام عبر الإنترنت كمنصات للتواصل وتبادل المعلومات، وأدى تزايد المحتوى النصي على الإنترنت، لخلق مزيد من الفرص للإقناع عبر وسائل مبتكرة وخلاقة. وبسبب هذا التحول الذي طرأ على البلاغة، فإن العلاقة ما بين الكتاب والقراء تغيرت من ناحية الشكل وأسلوب التواصل والفعالية. وتتقدم البلاغة الرقمية وتغير بذلك الطرق التي يختار فيها الأفراد إيصال أفكارهم لجمهور أكبر. كلا البلاغة والبلاغة الرقمية تحملان تعاريف ومعاني مختلفة وذلك بحسب الجهة التي تعطي التعريف؛ على سبيل المثال، قامت "مجلة هارلوت للفنون" عام ٢٠١٤ بإجراء مسابقة عبر تويتر للناس ليعطوا تعريفاً للبلاغة، وكانت النتيجة وجود إدخالات متنوعة للغاية وعلى نطاق واسع، ولعل مصطلح بلاغة الانترنت يستوعب مصطلحات أخرى، وجميعها يشير إلى مفهوم "مزيج بلاغي". إذ كان غرض أي تعبير هو أن يستحوذ على انتباه المتلقي في البلاغة التقليدية، فإن استخدام الكلمات - شفاهة وكتابة - لإثارة مشاعر الآخرين أو إقناعهم، من خلال قرارات بلاغية متنوعة، يتخذ أكثرها في الحوار الشفهي نتيجة الاتصال البصري/ السمعى بين المشاركين، وقدرة المتحدث على النقاط تلميحات ضرورية عن طبيعة المستمع واتجاهاته، كتوضيح الكلام له إذا لم يفهم، التورية والرمز إذا كان متحفظاً، عدائياً، إلى آخر ما يضطر كتاب إلى توقعه في حال الكتابة؛ فإن الإنترنت وفرت للكتاب خيارات مؤثرة لتحديث توقعاتهم والتفاعل الفوري/ السريع مع نتائجها، سواء بالاتصال المباشر وغير المباشر، أو بمعرفة التلميحات الضرورية عن الجمهور بطرق متعددة، منها على سبيل المثال مدخل تسجيلات الخادم الذي يوجد عليه الخادم الذي يوجد عليه الموقع والذي يضمن الحصول على معلومات وافية عن يتصفحونه فوراً: عددهم من أي جزء في العالم هم، مدة بقائهم على الصفحة ومدى تفاعلهم مع المحتوى^(١).

علاقة البلاغة بعلم النفس:

إن علم النفس يلزم النقد الأدبي والبلاغة في تفسير مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وفي بيان موضوع دراسة البلاغة بياناً مفصلاً منظماً، ونلخص بصورة مختصرة توضيح ذلك:

١- هناك أولاً قوة الإدراك: تلك القوة التي بها يعرف الإنسان ويدرك ويعمل ويستنبط، وهذه القوة تحتاج في ثقافتها والتأثير فيها إلى الحقائق الصحيحة المعقولة بالبراهين الصادقة ومعنى المطابقة بالنسبة لهذه القوة تمكين القراء والسامعين من إدراك المعاني وفهمها والإقناع بها، وهذه القوة التي تغلب على رجال العلم، والفلسفة والسياسة ويشدد سلطانها أيام الاستقرار في البيئات الخصبة

الغنية، وأما الكلام الذي يلائم هذه القوة فهو النثر العلمي أو الأدب بالمعنى العام كالتاريخ والنقد والعلوم والفلسفة وكل ما يزود بالحقائق الحيوية النافعة.

٢- قوة الانفعال (العاطفة): وبها يشعر الإنسان ويتخيل، وهي الظاهرة التي تتحكم كثيرا في حياة العشاق والفنيين والنساء وتوقظها البيئات الجميلة والمواقف العنيفة، والحوادث القوية وأيام الثورات والكلام الذي يتجه إلى العاطفة يجب ألا يقف عند إفهام الحقائق بل لا بد من إيقاظ الشعور وبعث الخيال وذلك هو الشعر والنثر الأدب الممتاز، كالقطع الوصفية، والرسائل الشاكية أو الغزلية والقصص القيمة، والروايات المؤثرة، مما يسود فيه عنصر العاطفة.

٣- قوة الإرادة: وهي القوة العملية التي يعتمد عليها الإنسان في تنفيذ ما يعتقد، وفي الاتصال العملي بالحياة والكلام الذي يلاءم هذه القوة يجب أن يجمع بين أمرين: الإفهام والتأثير، عن طريقي الإدراك والوجدان، وبذلك يدفع الإنسان إلى العمل ويؤثر في سلوكه وأخلاقه، وهي كما تعلم موهبة الجند والقواد، ورجال المغامرات، وذوي المذاهب والآراء الحديثة، وأكثر ما تلزم أيام المحن والانقلاب، والخطابة هي الفن الكلامي الذي يعد أنسب الفنون لقوة الإرادة، ولذلك تعد فنا عمليا، وهي تجمع بين قوتي الإقناع والتأثير للذين يدفعان الإرادة إلى العمل الحاسم.

وهنا نرى أن معنى المطابقة البلاغية قد اتبع فتناول مظاهر النفس الإنسانية ومواهبها المختلفة، كما اشتمل على الفنون الأدبية جميعا، ولاحظ فوق ذلك الزمان، والمكان، والنوع الذي نتحدث إليه، وإذا تقدمنا قليلا فلاحظنا الفرد ومواهبه الخاصة، والأساليب وعناصرها التفصيلية، وأنواعها المتعددة نرى لنا هذا المدى الواسع الذي تنبسط فيه الناحية التطبيقية لفن البلاغة، وأدركنا إدراكا صحيحا ما قيل إن المتكلم مع المخاطب كالطبيب مع المريض يجب أن يفحصه فحصا دقيقا وأن يفرض له أو يصف من الدواء أو الكلام ما يلائمه وإلا أضر به، ونقول إن البليغ مع المخاطبين كالقائد أمام الحصن يجب أن يهاجمه من حيث ينتظر الظفر، والسلاح الذي به يفوز. وإتماما لهذه المسألة نقول، من المقرر الثابت في علم النفس أن هذه القوى المعنوية ليست منفصلة إحداها عن الباقي في الطبيعة النفسية، بل هي خاضعة لنظرية الوحدة الروحية فهي مظاهر تتوارد على نفس الإنسان حسب الدواعي والمؤثرات فالإنسان مرة مفكر بنفسه وأخرى منفعل بها والثالثة مريد معتزم والنفس هي، إلا أنها تلبس لكل حال ثوبا يناسبها وهي مع ذلك متواصلة متعاونة، والفكر يعيش أزر العاطفة وهي توقظه وهما يبعثان الإرادة ويندر أن توجد فكرة لا تثير عاطفة ولا تحرك إرادة^(٧).

العلاقة بين البلاغة والمنطق:

البلاغة تعتمد على النحو والمنطق، وتمتاز بالجمال الفني أو المطابقة: إن كلا من النحو والمنطق علم مستقل لا يدخل في صميم البلاغة ولكنه يمهد لها، ويسبقها إلى تحقيق الصحة في العبارة والفكرة، وبعد ذلك تتقدم البلاغة لتوفير المناسبة أو المطابقة التي هي وظيفة الفن البلاغي الأصل وبالرجوع إلى الثقافة العربية نجد للمنطق أثر كبير فيها، حيث أفاد منه علم الكلام والفلسفة، وأفادت منه العلوم الدينية كالأصول، وكذلك النقد الأدبي في بعض مناهجه، وتتجلى إفادة هذه العلوم من المنطق في ضبط مناهجها وجعلها قائمة على البحث الدقيق المحكم، وليس في نيتي الكلام على تأثير المنطق في العلوم بهذا المعنى الواسع، فهذه الكلمة لا تنهض بذلك، وليس من اختصاص صاحبها، وإنما المراد محاولة حصر أثر المنطق في البلاغة بوجه عام^(٨). وازداد تأثير المنطق في البلاغة قوة عند المتأخرين، فالسكاكي مثلاً حين ألف كتابه مفتاح العلوم في العلوم الأدبية أرفد علوم البلاغة بالبحث المنطقي في الحد والاستدلال وعلل ذلك بأن "تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي ومعرفة خواصها، مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان"^(٩)، فقد جعل معرفة المنطق ضرورة لمن يتعاطى البلاغة، فهو عنده عمادها الذي تقوم عليه، ومن ثم تكلم على البلاغة والمنطق في كتاب واحد.

ونظير هذا التأثير القوي تلك المداخل المنطقية التي ذكرها البلاغيون المتأخرون كمقدمة أو تمهيد للبيان، وتنصب على الدلالة وشروطها وأقسامها الوضعية، والعقلية، وقد أفضى هذا التأثير إلى ظهور مدرستين في البحث البلاغي نص عليهما أبو هلال العسكري بقوله: "وليس الغرض في هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب، فلماذا لم أطل الكلام في هذا الفصل"^(١٠).

وقد حذا أبو هلال العسكري حذو قدامة في اعتماد المنطق وإن لم يبالغ مثله، وذلك إذ ذهب إلى أن المدح إنما يكون بالفضائل الأربع، وأن الهجاء يكون بسلب تلك الصفات المستحسنة التي تختصها النفس^(١١). ويدخل في هذا المجال كلامه على خطأ المعاني وصوابها وأقسامها كما جاء في الفصل الثاني من كتابه^(١٢).

وإذا نظرنا في القرون التالية فإننا نجد المدرسة الكلامية قد خطت خطى بعيدة على يد السكاكي الذي جعل البلاغة أبواباً وفصولاً وفرع مسائلها وشقق أقسامها ووضع لها الحدود المركزة والقواعد المحددة بحيث تغلغل فيها المنطق وأصبحت كثير من أساليبها لا تفهم إلا به ومن خلاله.

العلاقة بين البلاغة والفلسفة:

أما الفلسفة فليست إلا البحث الحر العميق، والإنسان وهو سيد الكون المنبعث عن المعرفة من حيث عقله وشعوره وعواطفه وإرادته فتناولت في بحثي هذا علاقات البلاغة بفروع الفلسفة وكان المنطق، والجمال والنفس والأخلاق وغيرها من هذا الفرع كما تطرقت لها أعلاه. وأما البلاغة فما هي بإيجاز إلا درس فن القول، والبحث عن الجمال فيه كيف وبما يكون. وفي هذا التحديد القصير تتبين صلاتهما المتينة والعلاقة الثابت بين حقيقتيهما إذ كان الجمال موضع عناية لهما كليهما فتحاول الفلسفة في بحثها عن الجمال أن تتعرف ما هو وكيف يحسه الإنسان ويقع من نفسه وأي طرق أداء الإنسان لهذا الشعور بالجمال أدق وكيف يترجم عن إحساسه به، وبم يقتدر على هذا الأداء وتلك الترجمة حتى يكون فناً حقيقياً صادقاً؛ وهكذا الأبحاث الفلسفية كلها قريبة من البلاغة التي هي درس لفن الترجمة عن الإحساس بواسطة القول، وبحث في جمال الكلام^(١٣).

وبهذا نجد للفلسفة والبلاغة صلة ذاتية دائمة الأثر والتداخل بينهما، ولكن ليس ذلك ما نريد أن نقوله من أثر الفلسفة في البلاغة ولا هو جوهره، وإنما هو أيسره.... ولو مضينا في التقصي لوجدنا تأثر البلاغة بالفلسفة وفروعها من المنطق والكلام قويا بعيد المدى في نواح متعددة منها:

١- قويا باديا في نشأت البلاغة وظهورها.

٢- قويا في تطويرها وسير دراستها.

٣- قويا في ضبط أبحاثها وتحديد دائرة درسها.

٤- قويا في تعيين غرضها وغايتها.

للفلسفة تأثير في نشأة البلاغة من جهتين:

أ- جهة منطقية أو فلسفية عامة.

ب- جهة كلامية أو فلسفية إسلامية خاصة^(١٤).

وإذا استعرضنا تأثير الفلسفة وفروعها من المنطق والكلام في البلاغة فإننا نجد أن هذا التأثير كان قويا واسع المدى يشمل جميع مراحل عمرها، فقد نشأت البلاغة في أحضان كثير من العلوم كان المنطق والكلام على رأسها، والدليل على هذا أن أكثر البلاغيين كانوا يتعاطون الفلسفة والكلام، وأذكر منهم بشر بن المعتمر، والجاحظ، وقدامة بن جعفر، وعبد القاهر الجرجاني، والزمخشري والسكاكي وغيرهم كثير، وقد كان لصلة رجال البلاغة بالفلسفة أثرها في توجيه الأبحاث البلاغية توجيهها كلاميا فلسفيا مما جعل بعض الباحثين يذهب إلى القول بأن البلاغة كانت وديعة في يد المتفلسفين على مر الدهر. ولتأثير الفلسفة بمنطقها وكلامها في البلاغة

صور ومظاهر كثيرة: منها أن المتكلمين وضعوا المصطلحات وأمدوا بها البلاغة أثناء نموها وتكوينها بحيث استفادت من ذلك في وضع أسسها وتدعيمها وجعلها نشاطا خاصا قائما بذاته، ومنها أيضا ظهور الفنون البلاغية على يد الباحثين في الإعجاز وأغلبهم من المتكلمين الذين تمثلوا المنطق واعتمدوا عليه في أبحاثهم الاعتقادية، ومنها كذلك النزعة الجدلية الحجاجية التي سيطرت على البلاغة ولا سيما عند المتكلمين، ومنها الكلام على أوجه الحسن الفلسفي كما نجد في البيان، والكلام على الأسباب والمسببات كما نجد في المجاز المرسل، والكلام على الفاعل الحقيقي والفاعل المجازي كما نجد في علم المعاني، وهي مسألة أدت إليها الفلسفة الإلهية^(١٥).

العلاقة بين البلاغة والكلامية:

كثيرا ما تتدخل المعارف والعلوم فتتبادل التأثير ويغذي بعضها بعضا، ومن ذلك ما وقع بين البلاغة والفلسفة ونوضح ذلك من خلال:

العسكري في هذا النص يذكر مدرستين في البحث البلاغي هما: المدرسة الكلامية، والمدرسة الأدبية، ويسمياها "صناع الكلام" وسألني على كل مدرسة نظرة موجزة لتتضح معالمها.

١ — المدرسة الكلامية: وتتميز بالجدل والمناقشة والتحديد اللفظي، والعناية بالتعريف الدقيق الصحيح، والحرص على القواعد المحددة مع الإقلال من الشواهد الأدبية، والاعتماد على المقاييس الفلسفية والقواعد المنطقية في الحكم بحسن الكلام وجودته أو بقبحه ورداءته دون نظر إلى معاني الجمال وقضايا الذوق.

وتعنى المدرسة الكلامية - غالبا - بإعجاز القرآن الذي هو ملتقى ما بين الأدب والعقائد والفلسفة الإلهية وما أشبهها.

٢ — المدرسة الأدبية: وتتميز بالإكثار من الشواهد نثرا وشعرا، مع الإقلال من التعاريف، والقواعد والأقسام، وتعتمد في النقد الأدبي على الذوق الفني والحاسة الجمالية أكثر من اعتمادها على المقاييس الفلسفية وسلامة النظر المنطقي.

وتعني هذه المدرسة بالتكوين الأدبي والتمرين على صناعة الجيد من الكلام، وتربية الذوق النقدي، وعندما تخوض في مسألة الإعجاز تخوض فيها خوضا أدبيا غالبا^(١٦).

ومن رجال المدرسة الكلامية قدامة بن جعفر في كتابه نقد الشعر. ففي هذا الكتاب نرى الطريقة المنطقية الكلامية جلية، وذلك إذ يتحدث قدامة عن المديح فينظر إلى مذهب أفلاطون في أصول الفضائل الأربع وأمهاتها: من العقل، والشجاعة، والعدل، والعفة، ويرى أن القاصد لمدح الرجال بهذه الخصال مصيب، والقاصد إلى مدحهم بغيرها مخطئ^(١٧).

وأخيراً، فليس أدل على أهمية البلاغة ومنزلتها العظيمة، التي لا تدانيها منزلة فن آخر من فنون العربية من أن المعجزة الكبرى لدينا هي القرآن الكريم، وهو إعجاز بلاغي وبياني فوق طاقة جميع بشر مهما وصلت بلاغتهم فصاحتهم؛ وصدق القائل سبحانه قال تعالى: قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً^(١٨).

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم.
٢. ابن كمال باشا (ت: ٩٤٠هـ) رسالة في تحقيق معنى النظم والصياغة، دراسة وتحقيق: الدكتور حامد صادق قنبي،
٣. أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، ١٩٦١م، ص ١٤٧.
٤. السيد نجم، ناقد مصري، البلاغة الرقمية والنص القصصي الجديد، تقنية جديدة وآفاق جديدة - هيئة الكتاب المصرية ٢٠١٣م.
٥. حسام الخطيب، الأدب والتكنولوجيا وجسر النص المتفرغ، المكتب العربي لتنسيق الترجمة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٩٦م.
٦. السكاكي، أبي يعقوب يوسف بن محمد، مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٧١م.
٧. العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٩٥٢م.
٨. قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: مصطفى كمال، القاهرة، ١٩٦٥م.
٩. مجلة أدباء وشعراء، مجلة الرسالة، العدد، ٦٨٢/ البلاغة وعلم النفس .
١٠. محمد أبو موسى، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني: مكتبة وهبة الطبعة: السابعة.
١١. محمد عبد القادر احمد: طرق تعليم اللغة العربية، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٨٢م.
١٢. مصطفى الجويني كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، البلاغة في أمم الحضارة، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩م.
١٣. مصطفى الجويني، البلاغة في أمم الحضارة، دار المعرفة، ١٩٩٩م.

١٤. وجيه المرسي أبو لبن ومحمود خاطر، مفهوم البلاغة وأهداف تدريسها فكر محمود خاطر تربوي متجدد، ١٩٩٨م.
الهوامش:

- ١- ينظر: محمد عبد القادر احمد: طرق تعليم اللغة العربية، مكتبة النهضة، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٢٩٩.
- ٢- وجيه المرسي أبو لبن ومحمود خاطر، مفهوم البلاغة وأهداف تدريسها فكر محمود خاطر تربوي متجدد، ١٩٩٨م: ص ١٩٣.
- ٣- ابن كمال باشا (ت: ٩٤٠هـ) رسالة في تحقيق معنى النظم والصياغة، دراسة وتحقيق: الدكتور حامد صادق قنبي، ص ١٣.
- ٤- محمد أبو موسى، خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني: مكتبة وهبة، ط ٧، ص ١٣.
- ٥- السيد نجم، البلاغة الرقمية والنص القصصي، تقنية جديدة وآفاق جديدة- هيئة الكتاب المصرية ٢٠١٣م.
- ٦- حسام الخطيب، الأدب والتكنولوجيا وجسر النص المنقرغ، المكتب العربي لتنسيق الترجمة والنشر، دمشق، ط ١، ١٩٩٦م.
- ٧- مجلة أدباء وشعراء، مجلة الرسالة، العدد، ٦٨٢/ البلاغة وعلم النفس.
- ٨- أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ص ١٤٧.
- ٩- السكاكي، مفاتيح العلوم، دار الكتب العلمية، ص ٤٣٢.
- ١٠- العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٩.
- ١١- العسكري، الصناعتين، ص ٩٨-١٠٤.
- ١٢- نفس المصدر، ص ٦٩ وما بعدها.
- ١٣- مصطفى الجويني كلية الآداب- جامعة الإسكندرية، البلاغة في أمم الحضارة، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٩، ص ٦١.
- ١٤- مصطفى الجويني، البلاغة في أمم الحضارة، دار المعرفة، ١٩٩٩م، ص ٦٤-٦٥.
- ١٥- أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، دار المعرفة، ١٩٦١م، ص ١٤٧.
- ١٦- أمين الخولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب، ص ١٢٦.
- ١٧- قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق: مصطفى كمال، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٦٥-٦٦.
- ١٨- سورة الإسراء، الآية: ٨٨.